الأميرة

في باب المديرية يقابلني الآذن لائماً:

ـ أين كنت؟

ـ لم أغب، أخذت إجازة لمدة ساعة، وقع عليها المدير، وهي مقتطعة من إجازاتي.

ـ لم أقصد الإساءة، ولكن جاءت الأميرة في غيابك.

أدهش، تأتلق أمامي الأنوار، أحس بالكون زاهياً رحباً، أكاد لا أصدق نفسي، وأنا في السوق ذكرتها، بيني وبين نفسي ذكرتها، لا تغيب عن خاطري، هي حاضرة دائما في وجداني، كدقات قلبي، دائماً أحس بها، في كثير من الحالات أسمعها، لم يقدر ذلك الطبيب ولم يفهمه، ما من طبيب معالج لعلتي، لم يستغرقني السوق، ولكن كنت بحاجة إليه، لا لنفسي، ولكن للأولاد، أخذت إجازة لساعة واحدة، ونزلت إلى السوق، اشتريت للأولاد الخبز واللحم والخضار، اشتريت لهم الدواء، لم أشتر لنفسي دواء، ما عاد ينفعني في شيء، أعرف ما لعلتي من شفاء.

ـ كيف جاءت؟ هل رأيتها أنت؟

ـ لا أعرف كيف، أنا ما رأيتها، كنت مشغولاً في الداخل، دخلت إلى غرفتي لعشر دقائق فقط، لأعد لنفسي كأس شاي، أنا أعرف موضعي، هنا عند الباب، كان يجب ألا أغادر موضعي.

ـ وهل رأيتها وهي تخرج؟

ـ لا، دعاني رئيس الدائرة إلى مكتبه، دقائق معدودة، ورجعت إلى موضعي هنا عند الباب، فقالوا لي خرجت.

أمضي إلى غرفة مكتبي مكسوراً، أمضي مسروراً، جاءت من غير شك لزيارتي، منذ زمن أتوقع زيارتها، وما أزال أتوقعها، ستزورني من غير شك، أنا على يقين، ستزورني غير مرة، ولكن متى؟ وأين؟ بل كيف؟ لا أعرف.

أهبط على الدرج، العتمة الرطبة تمتص نبضي، تدفئني، توقظ حسي، أدخل مملكتي الواسعة، هنا أرضي، مملكتي، عالمي، صفوف من الرفوف تمتد وتمتد وتمتد، كأنها لا تنتهي، هي فعلاً لا تنتهي، لا أنسى يوم جاءني هاتف من المدير ينبئني بأمر المدير العام أن اقرأ ملف الأميرة، المدير العام لم أره طوال حياتي، ولا أحد من الموظفين رآه، له مكتب خاص في المديرية، كالمحراب في مسجد، ولكن لم

يره أحد فيه، هو في كل مكان، وليس له مكان، هو حاضر دائماً في الوجدان، أعرفه الآمر الناهي، الحاضر دائماً، يراني، وإن كنت لا أراه، يعرف ما أعمل، ولا أعرف ما يعمل، الهاتف منه يرعشني، ينفح في جسدي الروح، اقرأ ملف الأميرة، هكذا أنبأني المدير، وعلى الفور توجهت إلى ملفها، فتحته من بين ملايين الملفات، كل شيء عندي هنا في المخزن، كل ما يدب فوق على سطح الأرض له ملف هنا، وأنا من الملفات عرفت كل الكائنات، الأميرة ملفها مختلف، اقرأ، أمر لا أنساه، نقلني من العتمة إلى النور، نعش روحي، رقيت به درجات درجات، طفت به الأكوان، لا أعرف كيف همست باسمها وأنا أقرأ: شمس، وأكاد أسمع النداء يهتف أبدا: اقرأ.

أدخل إلى مكتبي، تنعشني العطور والأشذاء، إذن جاءت إلى غرفتي، هنا إلى الداخل، هنا كان لها حضور، أطوف بالأرجاء، أتأمل الجدران، أتلقى حضورها أمامي، ورائي أمامي من حولي، تنسكب في داخلي اللحون، الأشذاء الندية كالطل تملأ حسي ووجداني، أغمض العينين، لا أقوى على الرؤية.

كم أنا بائس، من أجل رغيف ولقمتين نزلت إلى السوق، من أجل زوجة وولد وابنتين حرمت رؤية الأميرة؟! هل عليَّ أن أصوم أبد الدهر؟ وما ذنب أطفال صغار، وزوجة

صابرة، يمكن أن أجوع أن أعرى، ولكن هم : لا. لن أغيب عن عملي ثانية، طوال عمري لم أغب عنه، لا بد أن تهل عليَّ ثانية الأميرة.

في الثامنة والنصف أصل إلى باب المديرية، الآذن يستقبلني معاتباً، فأرد عليه:

- لم أتأخر، كل الموظفين يأتون بعد الثامنة والنصف.

- ولكن ليس من عادتك أن تأتي متأخراً، دائما تدخل المديرية مع تمام الساعة الثامنة.

- نمت قليلاً، أغفوت، هي مجرد إغفاءة صغيرة، ماذا حصل، هل خربت المديرية.

- لم تخرب، بل العكس، عمرت.

- ماذا تقصد؟

- الأميرة.

- هل جاءت؟

- لا، بعثت رسولاً من قبلها.

- وهل رأيته؟

- نعم.

- كيف كان؟

ـ رجل عادي، يمشي ويتكلم ويلقي السلام، ولكنه كالملاك تحيط به الأنوار.

ـ ماذا قال لك.

ـ طلب مني أن أخبرك أنه ترك لك منها رسالة.

ـ أين هي؟

ـ سألته، فقال: فليبحث هو عنها.

ـ أين سأبحث عنها؟

ـ سألته أيضاً السؤال نفسه، فأجاب: في كل مكان.

شعرت بالعبء الثقيل، اعتراني برد، سرت في جسمي قشعريرة، بدأت أهذي، ثم صحوت، سررت، قلت: شرف لي أن أبحث، سأراها في كل مكان، لن تغيب عني غزالتي، سأبحث عنها في الفجر النديان، في قيظ الحر اللاهب، في الأصيل العليل، في الغروب الجميل، في المساء الناعم، في الليل الناعس، في السحر الهيمان، في كل المواسم في كل الشهور في كل الفصول، سأبحث عنها وأنا معافى وأنا عليل، في وحدتي وأنا في العمل ووراء المكتب وفي زحمة المراجعين وفي اكتظاظ السوق وصخب الباعة والمشترين، سأبحث عنها قائماً قاعداً مستلقياً، سأبحث عنها في الصحو في المنام، سأعدو في إثرها كالمجنون، وإن كنت قد بلغت الأربعين.

حين رجعت إلى البيت في المساء، وجدت نفسي مرهقاً جداً، سرت من المديرية إلى البيت. أرهقني المسير، بل سرني المسير، كأني أسير في الدرب أول مرة، تأملت التراب والغبار والأشجار والأطيار والفراشات والحيتان والقمم المكسوة بالثلج والأنهر الدفاقة والمحيطات الواسعة والجزر والقارات، رأيت المرضى والأصحاء والفقراء والأغنياء والأشحاء والكرماء رأيت الكسالى والعاملين والراكضين والزاحفين بيض الوجوه والسود، القلقين والمطمئنين، كلٌّ كان في منزلة، كلٌّ كان في مكان، في علو أو سفول،ثم سرت في الصحارى ظللتني غمامة، استلقيت في ظل زيتونة، في ظل نخلة، تساقط علي الرطب،، أخذت سنبلة قمح صنعت من حباتها رغيفاً وأنا أرفعه إلى فمي التقطه مني غني جائع ثم مر بي فقير شبعان أطعمته حبة قمح كانت في يدي، ثم غفوت، لم يكن ما كان في منام.

حين بلغت البيت قالت لي الزوجة الحنون أخبرني، بلِّغ الأولاد كل ما رأيت، علِّمْهم، لعلهم من بعدك يتذكرون، قلت لها: أنا مطمئن، لن يضلوا بعدي.

❖ ❖ ❖

حين وصلت باب المديرية، وقف الآذن، سبقته إلى الكلام:

ـ لا تقل لي تأخرت، ولا تقل لي جاءت ولم تجدك، هذا آخر يوم لي، بلغت الثانية والستين، سأتركك أنت والمديرية، سأرحل.

ابتسم، همس:

ـ بل جاءت

أهم بالإسراع إلى الداخل، فيستوقفني قائلاً:

ـ وذهبت

ـ هل رأيتها؟

ـ لا، صدقني لا أعرف كيف حضرت وكيف غابت، وإن كانت في الحقيقة هي حاضرة دائماً لا تغيب.

ـ أذهلتني، أكاد أصاب بالجنون

ـ أنت المسؤول، نصحت لك، قلت لك لا تفتح ملفها

ـ ولكني تلقيت أمراً بالهاتف أن اقرأ كل شيء.

ـ هذا صحيح، ولكنك حاولت معرفة الاسم، وبحت به

ـ أنا؟

ـ نعم، هل نسيت؟ ألم تنطق مرة باسم شمس وأخرى باسم غزالة، لا تحاول قراءة اسمها، ستشقى، كل من فكر فيها جن، كأنها ليلى، قلت لك اهتم بزوجتك وأولادك، انشغل بدنياك، ولكنك سريت وراءها كالمجنون.

يأتلق الكون، ينهل نور وضاء، ينسكب كالشذى، أهمس لنفسي بيني وبين نفسي: الآن عرفت، أنا المجنون وهي ليلى، ليلى هو الاسم الذي قرأت بعض حروفه.

يصيح بي الحارس العجوز:

- قلت لك لا تفكر في الاسم، ليست الشمس ولا الغزالة ولا ليلى، هي كل هؤلاء، وهي ليست واحدة منهن، وليس بالاسم وحده يمكن أن تعرفها.

ارتعدت أوصالي، جفت عروقي، كأني قشة، كأني غبار، قلت له:

- أراك كالحكيم، دلني، انصح لي، أرشدني، تاه مني الدليل، ما السبيل؟

- ما من خلاص، أنت اخترت المصير، أنت إليه تسير: الموت دون الحبيب، قلت لك أنت الآن: مثل ليلى والمجنون.

أهمس وأنا أمضي مغمض العينين تاركاً المديرية وراء ظهري:

- هذا هو العطاء، وبه أرضى.